رسول الله ﷺ من قرأ سورة محمد ﷺ كان حقًا على الله أن يسقيه من أنهار الجنة[1].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الفتح مدنية

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾.

هو فتح مكة وقد نزلت مرجع رسول الله ﷺ عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح، وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة. وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى.

فإن قُلْتَ: كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ **قُلْتُ:** لم يجعل علة للمغفرة ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة وهي المغفرة، وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز كأنه قيل يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوّك لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل، ويجوز أن يكون فتح مكة من حيث أنه جهاد للعدو سببًا للغفران والثواب والفتح: الظفر بالبلد عنوة، أو صلحًا بحرب أو بغير حرب لأنه منغلق ما لم يظفر به فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح، وقيل: هو فتح الحديبية ولم يكن فيه قتال شديد ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة، وعن ابن عباس رضي الله عنه: رموا المشركين حتى أدخلوا في ديارهم، وعن الكلبي ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح.

فإن قُلْتَ: كيف يكون فتحًا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ **قُلْتُ:** كان ذلك قبل الهدنة فلما طلبوها، وتمت كان فتحًا مبينًا وعن موسى بن عقبة أقبل رسول الله ﷺ من الحديبية راجعًا فقال رجل من أصحابه ما هذا بفتح لقد صدّونا عن البيت، وصدّ هدينا فبلغ النبي ﷺ فقال: بئس الكلام هذا بل هو أعظم الفتوح، وقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ويسألوكم القضية ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا[2] وعن الشعبي: نزلت بالحديبية وأصاب رسول الله ﷺ في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب أن بويع بيعة الرضوان، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر وظهرت الروم على فارس وبلغ الهدي محله وأطعموا نخل خيبر وكان في فتح الحديبية آية عظيمة، وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة فتمضمض رسول الله ﷺ، ثم مجه فيها فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه وقيل فجاش بالماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها بعد[3] وقيل: هو فتح خيبر وقيل: فتح الروم، وقيل: فتح الله له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف، ولا فتح أبين منه وأعظم وهو رأس الفتوح كلها إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه وقيل معناه قضينا لك قضاء بينًا على أهل مكة أن تدخلها أنت وأصحابك من قابل لتطوفوا بالبيت من الفتاحة وهي الحكومة وكذا عن قتادة.

لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾.

﴿ما تقدّم من ذنبك وما تأخر﴾ يريد جميع ما فرط منك وعن مقاتل ما تقدّم في الجاهلية، وما بعدها وقيل ما تقدّم من حديث مارية وما تأخر من امرأة زيد.

وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾.

﴿نصرًا عزيزًا﴾ فيه عز ومنعة، أو وصف بصفة المنصور إسنادًا مجازيًا أو عزيزًا صاحبه.

هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾.

﴿السكينة﴾ السكون كالبهيتة للبهتان أي أنزل الله في قلوبهم السكون، والطمأنينة بسبب الصلح والأمن ليعرفوا فضل الله عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف والهدنة غب القتال فيزدادوا يقينًا إلى يقينهم، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع **﴿ليزدادوا إيمانًا﴾** بالشرائع مقرونًا إلى إيمانهم، وهو التوحيد عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن أوّل ما أتاهم به النبي ﷺ التوحيد فلما آمنوا بالله وحده أنزل الصلاة والزكاة، ثم الحج ثم الجهاد فازدادوا إيمانًا إلى إيمانهم أو أنزل فيها الوقار والعظمة لله عزّ وجل ولرسوله ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانًا إلى إيمانهم وقيل أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم **﴿ولله جنود السموات والأرض﴾** يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه.

وَيُعَذِّبَ الْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ الظَّآنِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ

---

(1) ذكره الثعلبي وابن مردويه، وذكره الواحدي، الزيلعي 3/301.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، باب: قصة الحديبية، الزيلعي 3/305.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المغازي، باب: غزوة الحديبية، (الحديث رقم: 4150)، وأخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: غزوة ذي قرد، (الحديث رقم: 132 ـ 1807).

جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾.

وقع السوء عبارة عن رداءة الشيء وفساده والصدق عن جودته وصلاحه فقيل في المرضى الصالح من الأفعال: فعل صدق وفي المسخوط الفاسد منها: فعل سوء ومعنى: ﴿ظن السوء﴾ ظنهم أنّ الله تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرًا ﴿عليهم دائرة السوء﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم والسوء الهلاك والدمار، وقرئ دائرة السوء بالفتح أي الدائرة التي يذمونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء، وعند المؤمنين دائرة صدق.

فإن قُلْتَ: هل من فرق بين السوء والسوء! قُلْتُ: هما كالكره والكره والضعف والضعف من ساء إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء، وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير يقال أراد به السوء وأراد به الخير، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذمومًا وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدّة فصح أن يقع عليه اسم السوء كقوله عزّ وعلا: ﴿إن أراد بكم سوأ أو أراد بكم رحمة﴾[1].

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾.

﴿شاهدًا﴾ تشهد على أمّتك كقوله تعالى: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيدًا﴾[2].

لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾.

﴿ليؤمنوا﴾ الضمير للناس ﴿وتعزروه﴾ ويقووه بالنصرة ﴿ويوقروه﴾ ويعظموه ﴿ويسبحوه﴾ من التسبيح أو من السبحة والضمائر لله عز وجلّ، والمراد بتعزير الله تعزير دينه ورسوله ﷺ ومن فرق الضمائر فقد أبعد، وقرئ: لتؤمنوا وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بالتاء والخطاب لرسول الله ﷺ ولأمّته، وقرئ: ﴿وتعزروه﴾ بضم الزاي وكسرها وتعزروه بضم التاء والتخفيف وتعززوه بالزايين وتوقروه من أوقره بمعنى: وقره وتسبحوا الله ﴿بكرة وأصيلًا﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾.

لما قال: ﴿إنما يبايعون الله﴾ أكده تأكيدًا على طريق التخييل[3] فقال: ﴿يد الله فوق أيديهم﴾ يريد أن يد رسول الله التي تعلوا يدي المبايعين هي يد الله، والله تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنما المعنى تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما كقوله تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾[4] والمراد بيعة الرضوان ﴿فإنما ينكث على نفسه﴾ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه: بايعنا رسول الله تحت الشجرة على الموت وعلى أن لا نفرّ فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقًا اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم[5]. وقرئ إنما يبايعون لله أي لأجل الله ولوجهه، وقرئ ينكث بضم الكاف وكسرها وبما عاهد وعهد ﴿فسيؤتيه﴾ بالنون والياء يقال وفيت بالعهد، وأوفيت به وهي لغة تهامة ومنها قوله تعالى: أوفوا بالعقود والموفون بعهدهم هم الذين خلفوا عن الحديبية وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل وذلك أنّ رسول الله ﷺ حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرًا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت وأحرم هو ﷺ وساق معه الهدي ليعلم أنه لا يريد حربًا، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا: يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فيقاتلهم وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم[6]، وقرئ: شغلتنا بالتشديد.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾.

﴿يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم﴾ تكذيب لهم في اعتذارهم وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون، وإنما هو الشك في الله والنفاق وطلبهم للاستغفار أيضًا ليس بصادر عن حقيقة ﴿فمن يملك لكم﴾ فمن يمنعكم من مشيئة الله

---

(1) سورة الأحزاب، الآية: 17.
(2) سورة البقرة، الآية: 143.
(3) قال أحمد: كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل، وقد تقدّمت أمثاله.
(4) سورة النساء، الآية: 80.
(5) أخرجه مسلم في كتاب: الإمارة، باب: استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال (الحديث رقم: 69 ـ 1856).
(6) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة بنقص يسير، باب الحديبية 3/ 308.

وقضائه ﴿إن أراد بكم﴾ ما يضركم من قتل أو هزيمة ﴿أو أراد بكم نفعًا﴾ من ظفر وغنيمة[1] وقرئ ضرًا بالفتح والضم. الأهلون جمع أهل، ويقال أهلات على تقدير تاء التأنيث كأرض وأرضات وقد جاء أهلة وأمّا أهال فاسم جمع كليال.

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾.

وقرئ: ﴿إلى أهلهم﴾ وزين على البناء للفاعل وهو الشيطان أو الله عز وجل وكلاهما جاء في القرآن وزين لهم الشيطان أعمالهم وزينا لهم أعمالهم، والبور من بار كالهلك من هلك بناء، ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ والمعنى: وكنتم قومًا فاسدين في انفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾.

﴿للكافرين﴾ مقام مقام لهم للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر، ونكر ﴿سعيرًا﴾ لأنها نار مخصوصة كما نكر نارًا تلظى.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾.

﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ يدبره تدبير قادر حكيم[2] فيغفر، ويعذب بمشيئته ومشيئته تابعة لحكمته وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر ﴿وكان الله غفورًا رحيمًا﴾ رحمته سابقة لغضبه حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر، ويغفر الكبائر بالتوبة.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾.

﴿سيقول المخلفون﴾ الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إذا انطلقتم إلى مغانم﴾ إلى غنائم خيبر ﴿أن يبدلوا كلام الله﴾ وقرئ كلم الله أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة[3] مغانم خيبر إذا قفلوا مواعدين لا يصيبون منهم شيئًا وقيل هو قوله تعالى: ﴿لن تخرجوا معي أبدًا﴾[4] ﴿تحسدوننا﴾ أن نصيب معكم من الغنائم قرئ بضم السين وكسرها ﴿لا يفقهون﴾ لا يفهمون إلا فهمًا ﴿قليلا﴾ وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين كقوله تعالى: ﴿يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا﴾[5].

فإن **قُلْتَ**: ما الفرق بين حرفي الإضراب؟ **قُلْتُ**: الأوّل إضراب معناه ردّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين إلى وصفهم بما هو أطم منه، وهو الجهل وقلة الفقه.

قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾.

﴿قل للمخلفين﴾ هم الذين تخلفوا عن الحديبية ﴿إلى قوم أولي باس شديد﴾ يعني بني حنيفة قوم مسيلمة وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه لأن مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبي حنيفة، ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب والمجوس تقبل منهم الجزية وعند الشافعي: لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب

---

(1) قال أحمد: لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف، وكان الأصل والله أعلم: فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعاً؛ لأنّ مثل هذا النظم يستعمل في الضر، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطرداً كقوله: فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً، فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث: «إنني لا أملك شيئاً»، يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة وسر اختصاصه بدفع المضرة أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام، ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه، وليس كذلك حرمان المنفعة، فإنه ضرر عائد عليه لا له، فإذا ظهر ذلك، فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه؛ لأنّ القسمين يشتركان في أنّ كل واحد منهما نفي لدفع المقدّر من خير وشر، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة، وخص عبارة دفع الضر؛ لأنه هو المتوقع لهؤلاء إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد، وهي نظير قوله: ﴿قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوء أو = أراد بكم رحمة﴾ فإنّ العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة، فهاتان الآيتان يرثمان في التقرير الذي ذكرته، والله أعلم.

(2) قال أحمد: قد تقدّمت أمثالها، والقول بأنّ موجب الحكمة ما ذكر تحكم هذا، وأدلة الشرع القاطعة تاتي على ما يعتقده، فلا تبقي ولا تذر فكم من دليل على أنّ المغفرة لا تقف على التوبة، وكم يروم اتباع القرآن للرأي الفاسد، فيقيد مطلقاً ويحجر واسعاً والله الموفق.

(3) قال أحمد: فالإضراب الأوّل إذاً هو المعروف، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة، وإنما كان المنسوب إليهم ثانياً أشدّ من المنسوب إليهم أوّلاً؛ لأنّ الأوّل نسبة إلى جهل في شيء مخصوص، وهو نسبتهم الحسدانى المؤمنين، والثاني يعتبر بجهل على الإطلاق وقلة فهم على الاسترسال.

(4) سورة التوبة، الآية: 83.

(5) سورة الروم، الآية: 7.

والمجوس دون مشركي العجم، والعرب وهذا دليل على إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول الله ﷺ لكن بعد وفاته، وكيف يدعوهم رسول الله ﷺ مع قوله تعالى: ﴿فقل لن تخرجوا معي أبدًا ولن تقاتلوا معي عدوًّا﴾، وقيل هم فارس والروم ومعنى ﴿يسلمون﴾ ينقادون لأنّ الروم نصارى وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية.

فإن قُلْتَ: عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن وكان ذلك في أيام رسول الله ﷺ **قُلْتُ:** إن صح ذلك، فالمعنى: لن تخرجوا معي أبدًا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين أو على قول مجاهد كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول الله ﷺ إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم ﴿كما توليتم من قبل﴾ يريد في غزوة الحديبية، أو يسلمون معطوف على تقاتلونهم أي يكون أحد الأمرين إما المقاتلة أو الإسلام لا ثالث لهما وفي قراءة أبيّ أو يسلموا بمعنى إلى أن يسلموا.

لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾.

نفي الحرج عن هؤلاء من ذوي العاهات في التخلف عن الغزو. وقرىء ندخله ونعذبه بالنون، هي بيعة الرضوان سميت بهذه الآية وقصتها أنّ النبي ﷺ حين نزل الحديبية بعث جوّاس بن أمية الخزاعي رسولاً إلى أهل مكة، فهمّوا به فمنعه الأحابيش فلما رجع دعا بعمر رضي الله عنه ليبعثه فقال: إني أخافهم على نفسي لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدوي يمنعني، ولكني أدلك على رجل هو أعز بها مني وأحب إليهم عثمان بن عفان، فبعثه فخبرهم أنه لم يأت بحرب وإنما جاء زائرًا لهذا البيت معظمًا لحرمته فوقروه وقالوا: إن شئت أن تطوف بالبيت، فافعل فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ واحتبس عندهم فأرجف بأنهم قتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «لا نبرح حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة، فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة قال جابر بن عبد الله: لو كنت أبصر لأريتكم مكانها وقيل كان رسول الله ﷺ جالسًا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها قال عبد الله بن المغفل: وكنت قائمًا على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه فرفعت الغصن عن ظهره، فبايعوه على الموت دونه وعلى أن لا يفروا فقال لهم رسول الله ﷺ: أنتم اليوم خير أهل الأرض[1]، وكان عدد المبايعين ألفًا وخمسمائة وخمسة وعشرين وقيل ألفًا وأربعمائة وقيل ألفًا وثلثمائة[2].

۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾.

﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الإخلاص، وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه ﴿فأنزل السكينة﴾ أي الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم ﴿وأثابهم فتحًا قريبًا﴾، وقرىء وآتاهم وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة وعن الحسن فتح هجر وهو أجل فتح اتسعوا بثمرها زمانًا.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾.

﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ هي مغانم خيبر وكانت أرضًا ذات عقار وأموال فقسمها رسول الله ﷺ عليهم، ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾.

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة﴾ وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿فجعل لكم هذه﴾ المغانم يعني: مغانم خيبر ﴿وكف أيدي الناس عنكم﴾ يعني أيدي أهل خيبر وحلفاؤهم من أسد وغطفان حين جاؤا لنصرتهم فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا وقيل أيدي أهل مكة بالصلح ﴿ولتكون﴾ هذه الكفة ﴿آية للمؤمنين﴾ وعبرة يعرفون بها أنهم من الله تعالى بمكان وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم، وقيل رأى رسول الله ﷺ فتح مكة في منامه ورؤيا الأنبياء صلوات الله عليهم وحي فتأخر ذلك إلى السنة القابلة، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانًا لفتح مكة ﴿ويهديكم صراطًا مستقيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة ويقينًا وثقة بفضل الله.

وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾.

﴿وأخرى﴾ معطوفة على هذه أي فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى ﴿لم تقدروا عليها﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، وقال لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة ﴿قد أحاط الله بها﴾ أي قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها، ويجوز في أخرى النصب بفعل مضمر يفسره قد أحاط الله بها تقديره وقضى الله أخرى قد أحاط بها وأما لم تقدروا عليها فصفة لأخرى والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا وقد أحاط الله بها خبر المبتدأ والجرّ بإضمار رب.

فإن قُلْتَ: قوله تعالى: ولتكون آية للمؤمنين كيف موقعه؟ **قُلْتُ:** هو كلام معترض ومعناه ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك، ويجوز أن يكون المعنى وعدكم المغانم فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد الله بها صادقًا لأنّ صدق الإخبار عن الغيوب

(1) مرّ في الحديث 420.

(2) مرّ فيما سبق عند مسلم.

معجزة وآية ويزيدكم بذلك هداية وإيقانًا.

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾.

﴿ولو قاتلكم الذين كفروا﴾ من أهل مكة، ولم يصالحوا وقيل من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا.

سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾.

﴿سنّة الله﴾ في موضع المصدر المؤكد أي سن الله غلبة أنبيائه سنة، وهو قوله تعالى: ﴿لأغلبن أنا ورسلي﴾[1].

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾.

﴿أيديهم﴾ أيدي أهل مكة أي قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعدما خولكم الظفر عليهم والغلبة وذلك يوم الفتح وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحًا وقيل كان ذلك في غزوة الحديبية لما روي أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة فبعث رسول الله ﷺ من هزمه وأدخله حيطان مكة[2]، وعن ابن عباس رضي الله عنه أظهر الله المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وقرئ تعملون بالتاء والياء.

هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾.

قرئ: ﴿والهدي﴾ بتخفيف الياء وتشديدها وهو ما يهدى إلى الكعبة بالنصب عطفًا على الضمير المنصوب في صدّوكم أي صدّوكم وصدّوا الهدي وبالجر عطفًا على المسجد الحرام بمعنى وصدّوكم عن نحر الهدي ﴿معكوفًا أن يبلغ محله﴾ محبوسًا عن أن يبلغ وبالرفع على وصدّ الهدي ومحله ومكانه الذي يحل فيه نحره أي يجب، وهذا دليل لأبي حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم.

فإن قُلْتَ: فكيف حل رسول الله ﷺ ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ **قُلْتُ:** بعض الحديبية من الحرم[3] وروي أن مضارب رسول الله ﷺ كانت في الحل ومصلاه في الحرم[4].

فإن قُلْتَ: فإذن قد نحر في الحرم فلم قيل معكوفًا أن يبلغ محله؟ **قُلْتُ:** المراد المحل المعهود وهو منى ﴿لم تعلموهم﴾ صفة للرجال والنساء جميعًا و ﴿أن تطؤهم﴾ بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم والمعرة مفعلة من عره بمعنى عراه إذا دهاه ما يكره ويشق عليه و ﴿بغير علم﴾ متعلق بأن تطؤهم يعني أن تطؤهم غير عالمين بهم والوطء والدوس عبارة عن الإيقاع والإبادة قال:

ووطئتنا وطأ على حنق[5] وطأ المقيد ثابت الهرم

وقال رسول الله ﷺ: «وأن آخر وطأة وطئها الله بوج»[6] والمعنى أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفي الأماكن، فقيل: ولولا كراهة أن تهلكوا ناسًا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم فيصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة لما كف أيديكم عنهم وحذف جواب لولا لدلالة الكلام عليه ويجوز أن يكون لو تزيلوا كالتكرير للولا[7] رجال مؤمنون لمرجعهما إلى معنى واحد، ويكون لعذبنا هو الجواب.

فإن قُلْتَ: أي معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون؟ **قُلْتُ:** يصيبهم وجوب الدية والكفارة وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير.

فإن قُلْتَ: قوله تعالى: ﴿ليدخل الله في رحمته من يشاء﴾ تعليل لماذا؟ **قُلْتُ:** لما دلت عليه الآية وسيقت له من كف الأيدي عن أهل مكة والمنع من قتلهم صونًا لمن بين أظهرهم من المؤمنين كأنه قال: كان الكف ومنع التعذيب ليدخل الله في رحمته أي في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم ﴿لو تزيلوا﴾ لو تفرّقوا، وتميز بعضهم من بعض من زاله يزيله وقرئ لو تزايلوا.

إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾.

﴿إذ﴾ يجوز أن يعمل فيه ما قبله أي لعذبناهم، أو

---

(1) سورة المجادلة، الآية: 21.

(2) ذكره الطبري، وابن حاتم في تفسيره، الزيلعي 3/313.

(3) أخرجه البخاري في كتاب: المحصر، باب: النحر قبل الحلق في الحصر، (الحديث رقم: 1812).

(4) أخرجه أحمد في المسند 4/326.

(5) الحنق شدة الاغتياظ.

(6) راجع الحديث 164، (2).

(7) قال أحمد: وإنما كان مرجعهما ههنا واحداً، وإن كانت لولا تدل= على امتناع لوجود، لو تدل على امتناع لامتناع، وبين هذين تناف ظاهر؛ لأن لولا ههنا دخلت على وجود، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم، وامتناع عدم الوجود وجود، فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه، وكان جدي رحمه الله يختار هذا الوجه الثاني، ويسميه تطرية، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهداً وله، واحتيج إلى رد الآخر على الأول فمرة يطري بلفظه، ومرة بلفظ آخر يؤدي مؤداه، وقد تقدّمت لها أمثال، والله أعلم وهو الموفق.

صدّوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت وأن ينتصب بإضمار اذكر والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين والحمية الأنفة والسكينة الوقار ما روي أنّ رسول الله ﷺ لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص بن الأخيف على أن يعرضوا على النبي ﷺ أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك وكتبوا بينهم كتابًا فقال عليه الصلاة والسلام لعلي رضي الله عنه: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل وأصحابه: ما نعرف هذا ولكن كتب باسمك اللهم ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه رسول الله ﷺ أهل مكة فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة فقال عليه الصلاة والسلام: اكتب ما يريدون فأنا أشهد أني رسول الله وأنا محمد بن عبد الله فهم المسلمون أن يأبوا ذلك ويشمئزوا منه[1]، فأنزل الله على رسوله السكينة فتوقروا وحلموا و ﴿كلمة التقوى﴾ بسم الله الرحمن الرحيم ومحمد رسول الله قد اختارها الله لنبيه وللذين معه أهل الخير ومستحقيه ومن هم أولى بالهداية من غيرهم وقيل هي كلمة الشهادة، وعن الحسن رضي الله عنه كلمة التقوى هي الوفاء بالعهد ومعنى إضافتها إلى التقوى: أنها سبب التقوى وأساسها وقيل كلمة أهل التقوى، وفي مصحف الحرث بن سويد صاحب عبد الله وكانوا أهلها وأحق بها وهو الذي دفن مصحفه أيام الحجاج.

لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا فقصّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم وقالوا: إنّ رؤيا رسول الله ﷺ حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبيّ وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت ومعنى: ﴿صدق الله رسوله الرؤيا﴾[2] صدقه في رؤياه ولم يكذبه تعالى الله عن الكذب، وعن كل قبيح علوًا كبيرًا فحذف الجارّ وأوصل الفعل كقوله تعالى: ﴿صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾[3].

فإن قُلْتَ: بم تعلق ﴿بالحق﴾ قُلْتُ: إمّا بصدق أي صدقه فيما رأى وفي كونه وحصوله صدقًا ملتبسًا بالحق أي بالغرض الصحيح والحكمة البالغة وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص وبين من في قلبه مرض ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالاً منها أي صدقه الرؤيا ملتبسًا بالحق على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام ويجوز أن يكون بالحق قسمًا إمّا بالحق الذي هو نقيض الباطل أو بالذي هو من أسمائه و﴿لتدخلنّ﴾ جوابه وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف.

فإن قُلْتَ: ما وجه دخول ﴿إن شاء الله﴾ في أخبار الله عز وجل قُلْتُ: فيه وجوه أن يعلق عدّته بالمشيئة تعليمًا لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك متأدّبين بأدب الله، ومقتدين بسنته وأن يريد لتدخلنّ جميعًا إن شاء الله ولم يمت منكم أحد أو كان ذلك على لسان ملك فأدخل الملك إن شاء الله أو هي حكاية ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه وقصّ عليهم وقيل هو متعلق بآمنين ﴿فعلم ما لم تعلموا﴾ من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل ﴿فجعل من دون ذلك﴾ أي من دون فتح مكة ﴿فتحًا قريبًا﴾ وهو فتح خيبر لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

﴿بالهدى ودين الحق﴾ بدين الإسلام ﴿ليظهره﴾ ليعليه ﴿على الدين كله﴾ على جنس الدين كله يريد الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب، ولقد حقق ذلك سبحانه فإنك لا ترى دينًا قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة، وقيل هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر، وقيل: هو إظهاره بالحجج والآيات وفي هذه الآية تأكيد لما وعد من الفتح وتوطين لنفوس المؤمنين على أنّ الله تعالى سيفتح لهم من البلاد ويقيض لهم من الغلبة على الأقاليم ما يستقلون إليه فتح مكة ﴿وكفى بالله شهيدًا﴾ على أنّ ما وعده كائن عن الحسن رضي الله عنه شهد على نفسه أنه سيظهر دينك.

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

﴿محمد﴾ إما خبر مبتدأ أي هو محمد لتقدّم قوله تعالى: ﴿هو الذي أرسل رسوله﴾[4] وإما مبتدأ، ورسول الله عطف بيان وعن ابن عامر أنه قرأ رسول الله بالنصب على

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب: الجهاد والسير، باب: صلح الحديبية.

(2) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، وذكره الطبري في تفسيره، الزيلعي 3/316.

(3) سورة الأحزاب، الآية: 23.

(4) سورة الصف، الآية: 9.

المدح ﴿والذين معه﴾ أصحابه ﴿أشدّاء على الكفار رحماء بينهم﴾ جمع شديد ورحيم ونحوه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين واغلظ عليهم بالمؤمنين رؤف رحيم، وعن الحسن رضي الله عنه بلغ من تشدّدهم على الكفار وأنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنًا إلا صافحه وعانقه، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء، وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه الله وكذلك التقبيل قال: لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه، ولا يده ولا شيئًا من جسده وقد رخص أبو يوسف في المعانقة من حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهذا التعطف فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة وكف الأذى، والمعونة والاحتمال والأخلاق السجيحة ووجه من قرأ أشدّاء ورحماء بالنصب أن يصبهما على المدح أو على الحال بالمقدّر في معه ويجعل تراهم الخبر ﴿سيماهم﴾ علامتهم وقرئ سيماؤهم وفيها ثلاث لغات هاتان والسيمياء، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود وقوله تعالى ﴿من أثر السجود﴾ يفسرها أي: من التأثير الذي يؤثره السجود وكان كل من العليين عليّ بن الحسين زين العابدين وعليّ بن عبد الله بن عباس أبي الأملاك يقال له ذو الثفنات لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات البعير، وقرئ من أثر السجود ومن آثار السجود وكذا عن سعيد بن جبير هي السمة في الوجه.

فإن قُلْتَ: فقد جاء عن النبي ﷺ: «لا تعلبوا صوركم»(1). وعن ابن عمر رضي الله عنه أنه رأى رجلاً قد أثر في وجهه السجود، فقال: إن صورة وجهك أنفك فلا تعلب وجهك ولا تشن صورتك(2) قُلْتُ: ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة وذلك رياء ونفاق يستعاذ بالله منه ونحن فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصًا لوجه الله تعالى، وعن بعض المتقدّمين كنا نصلي فلا يرى بين أعيننا شيء ونرى أحدنا الآن يصلي فيرى بين عينيه ركبة البعير فما ندري أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق وقيل هو صفرة الوجه من خشية الله، وعن الضحاك ليس بالندب في الوجوه ولكنه سفرة وعن سعيد بن المسيب ندى الطهور وتراب الأرض، وعن عطاء رحمه الله استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل كقوله: من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار(3)

﴿ذلك﴾ الوصف ﴿مثلهم﴾ أي: وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعًا ثم ابتدأ فقال ﴿كزرع﴾ يريدهم كزرع وقيل تم الكلام عند قوله ذلك مثلهم في التوراة، ثم ابتدئ ومثلهم في الإنجيل كزرع ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله: ﴿كزرع أخرج شطاه﴾ كقوله تعالى: ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين﴾(4)، وقرئ الأنجيل بفتح الهمزة ﴿شطاه﴾ فراخه يقال أشطأ الزرع إذا فرخ وقرئ شطأه بفتح الطاء وشطاه بتخفيف الهمزة وشطاءه بالمدّ وشطه بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى ما فيها وشطوه بقلبها واوًا ﴿فآزره﴾ من المؤازرة وهي المعاونة وعن الأخفش أنه أفعل وقرئ فأزره بالتخفيف والتشديد أي فشدّ أزره وقوّاه ومن جعل آزر أفعل فهو في معنى: القراءتين ﴿فاستغلظ﴾ فصار من الدقة إلى الغلظ ﴿فاستوى على سوقه﴾، فاستقام على قصبه جمع ساق وقيل مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وعن عكرمة أخرج شطاه بأبي بكر فآزره بعمر فاستغلظ بعثمان فاستوى على سوقه بعلي وهذا مثل ضربه الله لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم لأنّ النبي ﷺ قام وحده، ثم قوّاه الله بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع.

فإن قُلْتَ: قوله ﴿ليغيظ بهم الكفار﴾ تعليل لماذا قُلْتُ: لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة ويجوز أن يعلل به ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك ومعنى ﴿منهم﴾ البيان كقوله تعالى: ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾(5) عن رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة»(6).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة الحجرات مدنية

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾.

قدمه وأقدمه منقولان بتثقيل الحشو والهمزة من قَدِمَهُ إذا تقدمه في قوله تعالى: يقدم قومه ونظيرهما معنى ونقلاً سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى: ﴿لا تقدموا﴾ من غير ذكر

(1) لم يخرجه الزيلعي.
(2) أخرجه عبد الرزاق: 2/173، (الحديث رقم: 2941).
(3) أخرجه ابن ماجه في كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في قيام الليل (الحديث رقم: 1333).
(4) سورة الحجر، الآية: 66.
(5) سورة الحج، الآية: 30.
(6) عزاه الزيلعي لابن مردويه، وللواحدي في تفسيره. زيلعي 3/ 319.